ما كنت احسب ان انهار الندى ، تجري بها في جملة الانهار ، ما كنت احسب ان انوار الحجى
تلتاح في فنن وفي احجار ، بحت جوانبها البرور وان تكن ، ثبت بها الاعلاء جذوع نار
هدت بناها في سبيل وفائها ، فكانها مرعى بغير عقار ، لما توعدها على المجد العدى
رضيت بعيث النار لا بالعار ، عمرت بحلة عامر واعزها ، عبد العزيز بمرهف بتار
فرسان رهان احرز قصب الندى ، والباس في طلق وفي مضمار ، وورثا عن الكبير ابيهما
محض الوفاء ورفعة المقدار ، وكذا الفروع تطول وهي شبيهة ، بالاصل في ورق وفي اثمار
ازرت وجوه الصيد من هنتانة ، فجوها بمطالع الاقمار ، لله اي قبيلة تركت لها
النظر ادعوى الفخر يوم فخار ، نفرت امير المسلمين وملكه ، قد اسلمته عزائم الانصار
واوت عليا بعد ما ذهب الردى ، والروع بالاسماع والابصار ، وتخاذل الجيش اللهام واصبح
الابطال بين تقاعد وفرار ، كفرت صنائعه فيمم دارها ، مستظهرا منها بعز جوار
واقام بين ظهورها لا يتقي ، وقع الردى وقد ارتمى بشرار ، فكانها الانصار لما ان سبت
فيما تقدم غربة المختار ، لما غدا لحظا وهم اجفانه ، نابت بسفارهم عن الاشفار
حتى دعاه الله بين بيوتهم ، فاجاب ممتثلا لامر الباري ، لو كان يمنع من قضاء الله ما
خلعت اليه نواقد الاقدار ، قد كان يامل ان يكافي بعض ما ، اولوه لولا قاطع الاعمار
ما كان يقنعه لو امتد المدى ، الا القيام بحقها من دار ، فيعيد ذاك الماء ذايب فضه
ويعيد ذاك الترب ذوب نضار ، حتى يفوز على النوى اوطانها ، من ملكه بجلايل الاوطار
ويسوغ الامل القصي كرامها ، من غير ما ثنيا ولا استعصار ، ما كان يرضى الشمس او بدر الدجى
عن درهم فيهم ولا دينار ، او ان يتوج او يقلدها بها ، ويخوره اباهلة ودرارى
حق على المولى ابنه ايثار ما ، بذلوه من نصر ومن ايثار ، فلمثلها ذخر الجزاء ومثله
من لا يضيع صنايع الاحرار ، وهو الذي يقضي الديون وبره ، يرضيه في علن وفي اسرار
حتى تحج محله ركبوا لها ، ملء الوفاء لا عين النظار ، فيصير منها البيت بيتا ثانيا
للطايفين اليه اي بدار ، تعنى قلوب القوم عن هدى به ، ودموعهم تكفي لرمي جمار
جيئت من دار تكفل سعيها ، المحمود بالزلفى وعقبى الدار ، وضعت عليك من الالاه ملابس
ما كر ليل فيك اثر نهار ، انتهى ويعني بالمولى ابنه السلطان ابا سالم بن السلطان ابي الحسن

ومن العجايب ان الرايس عامر بن محمد الذي جرى من هذه الابيات ذكره كان يوملـ[?] بابوايه للسلطان ابي الحسن ونصرته له وعدم اختياره منه فيه ان ينال من اولاده الملوك بذلك عزا واستطيلا ورياسة زايدة على ما كان فيه فقضى الله ان كان حتفه على يد السلطان عبد العزيز بن السلطان ابي الحسن اذ نازله بجنوده وحاصره بمعقله حتى استولى عليه وقتله حسبما استوفى ذلك الشيخ الرئيس قاضي القضاة ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي نزيل مصر في تاريخه الكبير الذي سماه بكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر لمن شاءه فليراجعه ثمة وكان الرئيس ابو ثابت عامر بن محمد الهنتاني المذكور خرج على السلطان عبد العزيز بالسلطان المعتمد على الله ابي الفضل محمد بن اخي السلطان عبد العزيز المذكور فكان من قتله ما ذكر والله غالب على امره ولنرجع الى ما كنا فيه من نثر لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ورضي عنه فنقول ومن كلام لسان الدين رحمه الله في كتابه اعمال الاعلام ما صورته وفي غرضي اذا من الله بانفراج الضيقة الوقتية ومعاودة الازمان الهنية والنصبة النقية ان نصنف في التاريخ كتابا جنيا على التطويل مستوعبا للكثير والقليل نسميه بضاعة المهولين في اساطير الاولين يكون هذا الكتاب بالنسبة اليه الحصاة من الرمال والقطرة من الغيث المتثال باعانة ذي القدرة والجلال انتهى ومن كلامه رحمه الله فما استبعد المرام من قصد الكرام وما انقطع ايناس من اهل الناس انتهى وقد سلك لسان الدين رحمه الله في كثير من كتبه كالكتيبة الكامنة والتاج المحلى والاكليل الزاهر وغيرها تحلية الاعلام من حملة السيوف والاقلام بالكلام المسجع الماخذ حظه من الاتقان على طريق صاحب القلايد والمطمح ابي نصر الفتح بن عبد الله المدعو بابن خاقان بليغ الاندلس بغير مدافع وعلى نهج مبادير ابن بسام صاحب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة وهو كتاب ينبغي ان يراجع وقد رايت ان آتي بشي من كلام لسان الدين فيما ذكر ولم بعد تحليته بالتعريف بحال من حلاه من الاعلام بحسب ما من به ويسره لي الملك العلام سبحانه فنقول قال لسان الدين في بعض كتبه في وصف بعض من عرف بره ما نصه اي نفس صافية من الكدر وصدر طيب الورد والصدر ودوحة عهد تندى اوراقها ومشكاة فضل يستطلع اشراقها تمسك برضاع الكاس يرى ذلك من حسن عهدها وقسم لحظاته بين آس الرياض ووردها فلما حوم حمامه للوقوع وكاد يقوض رحله عن الربوع وشمر بحبايل المنية تعلقه وسيعان خيل الاجل ترهقه اقلع عن لهوه وامر بسفك دنه وجاء الى الله باوبة وضرع الى الله في قبول توبته وغزا ان حوبته فكان ذلك عنوان الرضى وعلامة عفو الله عما مضى ودخلت عليه في مرضه والمرت باستعمال الدواء المسمى بلحية التيس عند الاطبا واستعمل فوجد بعض خفة وقال في آخر كتيبة الحاشية معدود في جنس السايمة والماشية تليت على العامل به سورة الغاشية تولى الاشغال السلطانية فذعرت الحيات لولايته وقامت قيامتهم لطلوع آيته وقنطوا كل القنوط وقالوا جاءت الدابة تكلمنا وهي احدى الشروط من رجل صايم الحشوة بعيد من المصانعة والرشوة يتجنب الناس ويقول عند محادثته

لاساس وعلى ساقه يجهد وتجهم وجهه فكان خالطا اساتذة باحسانه مستقلا بشانه غاضا من عنان لسانه مهتدى به في الاعمال يقدم فيها ويدبر ويرجح ويعبر ويحيط ويتبر وهو مع ذلك يكبر ويحسن من الازمة ويفتح وهو يبتح ولما شرع في البحث والتنقير والمحاسبة على النقطير والتقدير اتاه فاطم الاجل بين ركابه فاقصى العجل وصدرت عنه ابيات ختم فيها وقضم وحصل تحت القدر المشترك من نظم وقال في آخر كودن في حلية الاداب وستور عبد الله بيع بقيراط لما شاب هام بوادي الشعر مع من هام واستمطر منها الجهام فجاء بابيات اوهى من بيت العنكبوت نسجا ومقاصد لا تبين قصدا ولا نهجا ولابيت سعر وبقضاة اكابر فرسان اقلام ومحابر وعمال قادوا الدهر بازمة ازمتهم وفرعوا الزهر بخدمتهم وتكاثرت عليه رحمه الله الاحن وتعاورته المحن وتصرف آخر عمره في بعض الاعمال المخزنية فتعلل بنزر القوت الى الاجل الموقوت وقال في آخر معدود في رفقته من ادبايه ومحسوب في اعيان بلده وحسابه كان وحيد من اهل العدالة والخير سايرا على منهج الاستقامة احسن السير ولا دب لا يقصر عن السداد وان لم يكن بطلا فمن يكثر السواد قد اثبت له ما عثرت عليه مما ينسب الناس اليه وقال في آخر معتزل في قايم وخاتم فنا بسلاه ما الفنه ابرع من اورد البراعة في نفعي وهز غصنها في روضة طرس الا ما كان من سخافة عقله وقعوده تحت المثل اخبر بغله لا يرتبط الى رتبة ولا ينتمي الى عصبة ولا يتلبس بسمت ولا يستقيم من ان اخبرني من عني تخبره وذكر خبره من صباه الى كبره انه دخل في بعض الدول وعرض لاكتساب الخيل الخول
وخلعت عليه كسوة فاخرة وشاذة بزهو الرياض ساخرة فانقاد طوع جماته وبيد صفقة زمانه وحمله فرط التهم على ان ابتاع في حجره طعاما كثير الدسم واقبل واديا الرمة تقطر كما احلقت بالالين الاسطر فطرد ونبذ وطرح بعد ما جبذ لقيته بمالقة وقد تقلب لزمانه عينيه وسقطت في يديه فانتابني بامداحه وتعاورني باجاجه وقراحه وقال اديب نار فكره تتوقد واريب لا يعترض كلامه ولا ينتقد اما الهزل فهو طريقته المثلى ركض في ميدانها وجلى وطلع في افقها وتجلى فاصبح علم اعلامها وعابر احلامها ان اخذ بها في وصف الكاس وذكر الورد والاس والم بالربيع وفصله والحبيب ووصله والروض وطيبه والغمام وتقطيبه شق الجيوب طربا وملء النفوس شربا وضربا وان اسعى لاعتلال العشية في فرش الربيع الموشية ثم تعداها الى وصف الصبوح واجهز على الزق المجروح واشار الى نغمات الورق يرقلن في الحلل الزرق وقد اشتعلت في عنبر الليل نار البرق وطلعت بنود الصبح في شرفات الشرق سلب الحليم وقاره وذكر الخليع كاسه وعقاره وحرك الاشواق بعد سكونها واخرجها من وكونها بلسان يترجم عن سواد الخيال ويتدفق من حافاته الادب السيال وبيان يقيم اود المعاني ويشيد مصانع اللفظ محكمة المباني ويكسو حلل الاحسان جسوم المثالث والمثاني الى نادرة لمثلها يشار ومحاضرة يجنى بها الشهد ويشار وقد اثبت من شعره المعرب وان كان لا ينبسط اطاه الا قليلا ولا يجاوره الانقليلا ابياتا لا تخلو من سحة جمال على صفحاتها وهبة طيب ينم في نفحاتها وقال ايضا في آخر طريف السجية كثير الاريحية ارتحل من لورقة فتحها الله واتخذ المرية دارا والف بها استقرارا الى ان دعاه بها داعيه وقام فيها ناعيه وقال في وصف آخر شيخ اخلاقه لينة ونفسه كما قيل في نفس المومن هينة يلطم الشيعة باساقه محكما انساقه على فاقة وحال حوسالها من افاقه انشد المقام الكريم مطالع بلدع قصيدة استغرب منه منزعها واستعذب من مثله مشرعها وقال في آخر من ايمة اهل الزمام خليق برعي الذمات والذمام ذو حظ كما تفتح زهر الكمام واخلاق اعذب من ماء الغمام كان يبلد رحمه الله بدار اشرافه محاسبا ودره في حجة الاعمال واسبا صحيح العمل يلبس الطروس من براعته اسنى الحلل وله شعر لا بأس به ولا خفاء بفضل من هو وقال في آخر خير من استبق الى داعي الفلاح استباقا وانتمى الى القوم الذين هم في الاخرة اطول اعناقا وان كانوا في الدنيا اضيق ارزاقا مردد اذكار ومسبح اسحار وعامر مادة نثر ومنار كان يبلد موذنا بجامعها ومقيما باسم صوامعها ومعتبرا فيمن كان بها من السدنة ومن مثله قولا فكانما قرب بدنة وله لسان خفيف وشعر خفيف توشح بعلمه وجعله وسيلة كديته وقال في آخر عظيم الهيبة حسن اللقاء الغريب في حسن المداراة من العنقاء استمر بمرو للحكم وصبر على حجج العجم والبكم واوفر في هشته وهزته وتنزل عن نخوة القضاء وعزته وله سلف في القضاء على المراتب مزاحم للنجم الثاقب وقد اثبت من شعره ما تيسر اثباته وتجمع بروض هذا المجموع نباته وقال في آخر قاض تولت كل جلالة عن كلاله وجمع في العلم الحب بين الموروث والمكتسب ارتفع بجده في العشيرة محتول والقت عليه مقاليدها من منقول ومتاول الى نزاهة لا تزيدها ليلا ولا ضوءا وحلم لا تستهويه السعاية ولا تستفزه الاغراء ووقار يستخف الجبال الراسية ونظر يكشف الظلم الغاشية تولى قضاء الحضرة فانفذ الاحكام وامضاها وشام سيوف الحق وانتضاها ولبس اثواب النزاهة والانقباض فانضاها وسلك الطريق التي اختارها السلف وارتضاها واجتمعت الاهوال المفترقة عليه وصرف الثناء اعنة الالسن اليه ثم كرّ الى بلده واستقر خطيبا بنزارة اهله وولده وقال في آخر منتم الى المعرفة متصف في الذكاء باحسن صفة اقرا ببلده مسلم البيان وما حاد عن الاحسان وعانى الشعر فنظم قوافيه وما تكلف فيه وعلى غزارة مادته ووضوح جادته فشعره قليل البشاشة ذاهب الحشاشة وذو الاكثار كثير العثار وله سلف يحوم في اعقابه ينجعل ببعض الكلام الرايق وقال في نحو آخر منتم لدين وعفة اوى الى نفس بالوحدة لاهية مستخفة ممن نزع الى سلوك ورياضة ويفيض في طريق القوم بعض افاضة وقال في آخر ممن يتشوف الى المعارف